حقيقة الاسلام

للمستشرق الإنجليزى (ر . هـ . نولت)

عرضه الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

— ٤ —

الشريعة الخالدة :

منذ اليوم الذى قام فيه محمد بدعوته ، وسرت بين العرب كلمة الإسلام ، كانت الشريعة الإسلامية تطبق بواسطة السلطة الزمنية إلى مدى ألف سنة من حياة الإسلام ، برغم تغير العهود وتعدد الدول الإسلامية واختلاف مشارب الحكام وأهوائهم وتفاوت درجات تحمسهم للدين ، ولا تزال بعض أحكام الشريعة الإسلامية ، فيما يختص بتنظيم أحوال الزواج والطلاق والميراث وغيرها من الأحوال الشخصية ، تنفذ فى الدول الاسلامية إلى يومنا هذا — فيما عدا تركيا — وتنفيذ هذه الأحكام واجب بقوة القانون ، كما أن هذه الشريعة لا تزال القانون الرسمى للدولة فى بعض الدول الاسلامية كبلاد الحجاز وأفغانستان ، حيث يقطعون هناك يد السارق تنفيذاً لأمر القرآن .

« السارق والسارقة فاقطعوا أيدهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم »

ويجلدون أو يرجمون الزانى والزانية .

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

وإن كان القرآن لم ينص على الرجم إلا أنه نفذ فى حياة الرسول ، وفى اعتقادى أن النبى لجأ إلى الرجم حتى يفرق بين مرتكبى هذه الجريمة من متزوجين وغير متزوجين .

وكثيراً ما ترى بعض الهيئات فى الدول الاسلامية التى اتخذت القوانين الوضعية

قانونا لها وأحلتها محل قواعد الشريعة الاسلامية وطبقتها على أهلها ، تنادى هذه الهيئات بوجوب تطبيق الشريعة الاسلامية .

والحقيقة الواضحة لا تزال قائمة حتى فى هذه الدول التى غيرت وبدلت من قوانينها ، أن الشريعة الإسلامية هى المثل الأعلى وأنه لا قانون يعلو عليها .

* * *

وهناك ظاهرة واضحة فى البلاد الاسلامية التى تقوم بتطبيق القوانين الزمنية على أهلها وتحاسبهم على تصرفاتهم حسب مقتضياتها . وبرغم هذا فإن الشريعة الاسلامية تعتبر هى العامل الذى خلق مجتمعاً إسلامياً قوياً متحداً يضم كثيراً من الشعوب ذات العقائد المتعددة .

هذا المجتمع الذى خلفته الشريعة الاسلامية كان مجتمعا من طراز خاص ومن نموذج يختلف عن غيره من النماذج الأخرى .

لقد استطاع أن يصمد أمام الغزاة الفاتحين والمستعمرين الأجانب خلال عدة قرون ، كما استطاع أن يظل باقيا بالرغم من تعدد الثورات التى قامت فى مختلف المواطن الاسلامية ، وبرغم الأحداث السياسية التى اجتاحتها ، وكانت خليقة أن تذهب بهذه المواطن وتجعلها بددا .

واليوم نحس التأثير الكبير الذى أحدثته المدنية الغربية فى العالم الاسلامى ، كما أننا نرى عيوب الغرب كلها وفضائله منتشرة فى البلاد الاسلامية ، ولم يقتصر الأمر على هذا بل إن العالم الاسلامى أخذ عن الغرب نظم حكوماته وجيوشه وسياسته الاقتصادية ، وفوق ذلك أخذ عنه الكثير من عاداته الاجتماعية وآرائه الدنيوية ، فأصبح ينتشر اليوم فى الدول الاسلامية البرلمانات ذات السيادة والدساتير والمحاكم التى تطبق القوانين المدنية ، ونقابات العمال وشركات التجارة والصناعة الحديثة وطرق الزراعة الراقية ، كما ترى فيه السيارات تقطع الشوارع ، ودور السينما واللاسلكى وغير ذلك مما جاءت به المدنية الغربية مما أحدث ثورة اجتماعية كاملة فى البلاد الاسلامية .

ولا يقولن قائل إن الاسلام قد منع أهله من التفكير فى مثل هذه الأشياء ، لا . ولكن المسلمين هم الذين أتى عليهم حين من الدهر تواكلوا فيه ولم يحاولوا أن يطبقوا ما جاء فى الاسلام من الدعوة إلى تطور الحياة وتقدمها ، ولو أنهم واصلوا السير فى الطريق الذى رسمه لهم القرآن وسار فيه المسلمون السابقون فمن المؤكد أنه كانت

قد صدرت تلك البضاعة السابق ذكرها ، من البلاد العربية إلى البلاد الغربية وكان يقال (المدنية الاسلامية) بدلا من (المدنية الغربية) .

فقد جاء اليوم الذى كان المسلمون فيه فى الصحراء الشاسعة منبع الاسلام وفى الامبراطورية العثمانية يضيعون وراء الأسوار ويغطون فى نوم عميق غافلين عما يجرى خارج عالمهم ، وظل هذا حالهم حتى القرن العشرين عندما فوجئوا بالحقيقة التى بينت لهم السيادة المادية التى حصل عليها الغرب .

وقد جاءتهم هذه المدنية مع الغزاة المستعمرين ؛ وإن كان هؤلاء لا يريدون للأمم الاسلامية أن تنال شيئا من المدنية ، ولكن المسلمين الذين أخذوا يشعرون بكيانهم فى المجتمع الانسانى ، قاموا يغترفون من هذه السيادة المادية ومن مظاهرها بكل ما يستطيعون ، فاستوردت الآراء من الغرب استجابة للطلبات المحلية ، وقد ساعد على هذا الاقتباس ، قيام بعض الزعماء فى هذه الدول ممن تلقوا تعليمهم فى المعاهد الدينية التى بدأت تدرس الإسلام دراسة حقيقية ، مما أشرب قلوبهم الحرية ومكن من نفوسهم حب الديمقراطية الحقة التى كان يتمتع بها آباؤهم فى العصور الأولى للاسلام .

وقد نجح هؤلاء فى إدخال الأساليب الغربية إلى دول الاسلام ، وهم يعملون اليوم على أن يكيفوا هذه الأساليب حسب ما يأمر به الدين الاسلامى ، حتى لا ينحرفوا مع التيار الغربى وحتى لا يقفوا جامدين بينما العالم يتقدم بخطوات واسعة .

الضعف السياسى :

ليست الشريعة الاسلامية كغيرها من الشرائع الوضعية ، فهى لا تفرق بين الدين والسياسة .

لأن الحاكم فى نظر الشريعة الاسلامية هو الزعيم الروحى والزعيم الدنيوى ، بل والقائد الحربى فى كثير من الأحيان وخاصة فى أول عهد الاسلام ، والحاكم المسلم يجب عليه فى هذه الحالة أن يكفل تطبيق الشريعة فى كل مناحى الحياة ومختلف شئون المسلمين ، بالرغم من أن هذا هو صلب ما نصت عليه الشريعة الاسلامية ، إلا أنه أمر لم يمارس على الوجه الأكمل ، وذلك لأن الحاكم كانت له السلطة دائما فى تعيين رجال القضاء والادارة ، كما كان له حق عزلهم وتحديد اختصاصهم .

وقد كان هذا سببا فى أن يجعل الحاكم فى العصور المتأخرة من الاسلام

يجور فى تطبيق الشريعة الاسلامية متعمدا أحيانا وغير متعمد أحيانا أخرى .

وأما فى العصور الأولى فقد كان تمسك الحكام بجوهر الشريعة سببا فى كثير من المآسى التى أودت بحياة كثير من رجال الإسلام .

غير أن ما حدث فى الأزمان المتأخرة فلا يعتبر عيبا فى الشريعة الاسلامية ، ولكن فقهاء المسلمين هم الذين أخفقوا فى تطبيقها فى المجتمع الإسلامى .

هذه الشريعة التى كانت ضمانا عمليا للمجتمع وكانت تقوم حائلا بين تعسف الحكام وتعديهم اختصاصاتهم التى حددها القرآن والسنة .

وحتى بعد أن اتجهت كثير من الدول الاسلامية إلى الآراء الغربية ، فقد أخفقت هذه الآراء ولم تستطع أن تحقق مسئولية الحاكم أمام القانون وأمام المجتمع فى البلاد الاسلامية .

وقد يكون مرجع هذا إلى عدم قدرة المسلمين على تطبيق هذه القوانين كما سبق لهم أن اخفقوا فى تطبيق التعاليم والتقاليد الاسلامية التى زخر بها القرآن وسنة الرسول ، واستندت عليها الشريعة الاسلامية فى أحكامها . ولقد نصح الرسول المسلمين فقال :

(لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به ان تضلوا بعدى . كتاب الله وسنتى) .

واليوم يرى المتتبع لما يجرى فى بلاد العالم أن الدول الاسلامية تزخر بالأحداث والتغيرات والظروف العسيرة . فلا يملك أن يتساءل :

هل يمكن أن توضع الشريعة الاسلامية على نحو تستطيع معه أن تواجه هذه الأحداث ، وتطورات الظروف وتقلباتها ؟ وهل يمكنها أن تعالج بطريق عملى مرن ، مطالب المجتمع التى يفرضها التطور السريع الظاهر فى كل ميادين النشاط ، ليصبح المجتمع الاسلامى قويا كغيره من المجتمعات الأخرى ؟ مثل هذه الأسئلة من العسير الإجابة عنها الآن . ولكن يترك الرد عليها للزمن أولا وللمسلمين أنفسهم ثانيا ؟